الشعر والفكر

— ٢ —

بقلم ابراهيم صبري

من الشعراء المفكرين من تقترن حياتهم في بعض الأحيان بالأحداث الكبيرة حينما تلقي يد القدر على كواهلهم توجيه المجتمع إلى مثله العليا وقيادة مصائر الأمم . ومن ثم نرى منهم من يشعر في قرارة نفسه بهذه الرسالة ويجوس خلال الديار وهو يحمل في ثنايا أفكاره قبساً من الشعلة الوهاجة التي توقد نار الحماسة في البلاد بنفخته الساخنة الساحرة والتي قد تقضي على الشاعر نفسه وتحوّل قلبه رماداً إذا ما شاء القدر أن تخمد هذه الجذوة قبل أن تذلع نيرانها ومثل ذلك الشاعر الايراني الفردوسي والشاعر العربي أبو الطيب المتنبي .

أما الفردوسي[1] فقصته مشهورة فيما قام به من إحياء تاريخ الدولة الايرانية القديم وبث فكرة النهضة القومية لدى الشعب الايراني في ديوانه المشهور باسم (شهنامه) الذي نظمه عن مؤلف منثور مترجم من البهلوية ثم تأليفه في عهد السامانيين وبذل في نظم هذا التاريخ مجهوداً للوصول إلى هدفه المنشود استغرق ثلاثين سنة قضى أكثرها في قصر السلطان التركي محمود الغزنوي حيث قال :

بسي رنج بردم درين سال سي
عجم زنده كردم بدين پارسي

(ذقت ألواناً من المشقة ثلاثين عاماً)
(حتى أحييت ايران بهذه الفارسية)[2]

(١) ولد عام ٣٣٠ هـ في طوس .

(٢) بدأ بنظم الديوان عام ٣٦٥ هـ وانتهى منه عام ٤٠٠ هـ .

وقال الشاعر أيضاً بشأن وطنه الذى وصف وقائعه التاريخية فى ستين ألفاً من الأبيات :

چو ايران نباشد تن من مبـــاد
بدين بوم وبر زنده يك تن مبـــاد

(لا كنت إذا لم تكن ايران)
(ولا عاش فرد على هذه الأرض)

قام الفردوسى بأعظم عمل أدبى سياسى فى التاريخ وأعاد الأمة الايرانية بماضيها إلى الحياة بعد أن ترنم فى أشعاره بمجد ايران القديم الذى انقلب نفخة فى قيثارة الشاعر ثم نفذت هذه النفخة فى عروق القوم كروح جديدة .

أما المتنبى فيقول من قام[1] بالتنقيب عن خفايا حياته وبحث معانى أشعاره ومرماها :

" ولا شك أن جدته الحازمة الصالحة كانت تستحثه بعد وفاة أمه على طلب العلم وتستفزه إلى ذلك ليتم لها ما تؤمل من الفرح ببلوغه وتفوقه على لداته وأسنانه من العاوين ، ويستطيع بعد أن يدرك لها حقاً ويطلب لنفسه حقاً هضم ومنع من دونه حتى ألفى فى أسوأ مجهة وبشر منزلة فى خفاً من النسب وقلة من المال وبُعد عن مساعى المجد . وقد وجدت العجوز أرضاً صالحة بطبيعتها لما تريد من أمرها فتأدب الفتى بالعلم الذى كان يلقاه فى كتاب أولاد أشراف الكوفة واجتهد فى ذلك وبرع وفاق أصحابه وأخذته جدته بأخلاق طيبة وحاسبته وحرصت على استطلاع خبره كله وألقت فى قلبه وخياله طلب المجد بالعلم ، ثم زينت له الفتوة وعلو النفس وبُعد الهمة وعظم المطلب وأدّبته بالصدق والأمانة وكتمان السرّ وعلّمته من حيلها ودهائها وحذرها سعة الحيلة وخفاء الدهاء وتقديم الحذر ، وبعد أن أدرك الفتى من الفكر ما يُسرّ لها ما تريد أن توح له به ، طفقت تدبرّ له السرّ من هنا ومن هنا وتأخذ نفسها بالحذر والتكتم والاحتراس من ثورة الفتى إذا هى

(١) الأستاذ محمود محمد شاكر — المقتطف — الجزء الأول من المجلد الثامن والثمانين .

فجاءته بما تريد حتى بلغت ما أرادت . كان أبو الطيب كثير اهتمام بأمر الأمة التي هو منها لا يفوته مغمز ينتقده ، وكان أهل العصر على خلاف له في ذلك وخاصة من انتسب إلى الأدب وكان الأدباء والشعراء أهل شراب ومعاقرة . أما المتنبي فانه عقد قلبه على إحداث حدث لعله يصيب من ورائه ما يبتغي وما يؤمل ويدرك به ثأراً في قوم ليشفي به صدر جدته وصدره . هذا ، وقد يصف في شعره ما وصلت اليه الأمة العربية وما رآه في البلاد العربية . وهذه المعاني كلها دائرة في حياة المتنبي وشعره دوران الدم في عروقه فاذا قرأت أنت ديوانه من أوله الى آخره فلن يفوتك أن تراها جميعاً أو ترى بعضها ماثلا غير خفي في كل موضع من شعره حيث يقول :

يقولون لي ما أنت في كل بلدة   وما تبتغي ؟. ما أبتغي جلّ أن يُسمى
كأن بنيهم عالمون بأنني   جلوب إليهم من معادنه اليتما
وما الجمع بين الماء والنار في يدي   بأصعب من أن أجمع الجد والفهما
ولكنني مستنصر بذبابه   ومرتكب في كل حال به الغشما
وجاعله يوم اللقاء تحيتي   والا فلست السيد البطل القرما
اذا فلّ عزمي عن مدى خوف بعده   فأبعد شيء ممكن لم يجد عزما
واني لمن قوم كأن نفوسهم   بها أنف أن تسكن اللحم والعظما
كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبي   ويا نفس زيدي في كرائهها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني   ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

ويقول :

فلما أنخنا ركزنا الرماح   بين مكارمنا والعلى
وبتنا نقبّل أسيافنا   ونمسحها من دماء العدا
لتعلم مصر ومن بالعراق   ومن بالعواصم أني الفتى !
وأني وفيت وأني أبيت   وأني عتوت على من عتا ..

ويقول :

ومن عرف الأيام معرفتي بها   وبالناس روّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به   ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

ويقول :

فارم فى حيث شئت منى فانى أسد القلب آدمى الرواء
وفؤادى من الملوك وان كا ن لسانى يرى من الشعراء

ويقول :

ما مقامى بأرض نخلة الا كمقام المسيح بين اليهود
أنا فى أمة تداركها اللـ ـه غريب كصالح فى ثمود

ويقول :

أذاقنى زمنى بلوى شرقت بها لو ذاقها لبكى — ماعاش — وانتحبا
وان عمرت جعلت الحرب والدة والسمهرى أخاً والمشرفى أبا
بكل أشعث يلقى الموت مبتسما حتى كأن لـه فى قتله اربا
فالموت أعذر لى والصبر أجمل بى والبر أوسع والدنيا لمن غلبا !..

أقول هكذا نشأ المتنبي وسط ظروف شعر بآلامها منذ نعومة أظفاره ، وعند ما أنطق لسانه بالشعر أنشد قصائد للتعبير عما أوحت إلى قلبه تلك الأحوال المتعلقة بمصير أمته وجعلته يرنم أنشودة على وتيرة واحدة تفيض نغماتها على صدى ألحان قيثارته ألا وهى الثأر للعلويين وبناء مجد ضخم لهم بعد وضع الأمور فى نصابها فى الدولة التى أقام صرحها بنو قومه ثم لم تلبث أن وقعت ممتلكاتها الواسعة الأرجاء فريسة فى أيدى الطامعين للسلطان من الداخل والخارج .

هذا فى أزمنة غابرة قد خلت قبل قرون ... وأما إذا أخذنا مثلا من الأحداث المعاصرة التى كانت مصر — وهى أهم أجزاء المجتمع العربى الاسلامى — مسرحاً لها منذ زمن غير بعيد حيث كانت الأحداث أشد خطورة من حيث تكوين الشاعر المفكر ، رأينا أمير الشعراء شوقى الذى قال :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فذهب عنه هذا البيت مثلا بين بنى قومه ، قاله الشاعر حينما دعاهم ودعا العالم الاسلامى كله للوعى والقيام فى وجه مطاردة الغرب للمسلمين

فى عقر دارهم ، دعاهم بأشعار تزن وحيها فى قلبه الحافل بآلام أمته وكتب لتلك الأشعار الخلود فى الشعر العربى . سأذكر هنا للتنويه بدور هذا الشاعر فى المجتمع الاسلامى بعض ما كتبه الدكتور حسين هيكل فى مقدمة الشوقيات فى تحليل المقوّمات التى كانت ذات أثر فى إلهامات الشاعر عند ايمانه بالأهداف التى رمى اليها فى حياته الأدبية .

قال هيكل : " لقد سافر شوقى إلى أوروبا لاتمام علومه . وكان من قبل ذلك شاعراً متفوقاً وكان فى تفوقه ككل شاعر شاب يرسل القول كما تلهمه إياه نفسه . فلما عاد إلى مصر حتمت الظروف عليه أن يكون المعبّر عن الميول والآمال الكمينة فى نفوس المسلمين جميعاً لا فى نفوس المصريين وحدهم . وبذلك اجتمع فى نفسه من أول حياته ميله للحياة وحبه إياها وحرصه على المتاع بها مع ايمان المسلمين جميعاً وحرصهم على وحدتهم وعلى كيانهم بازاء الأمم الغربية التى كانت تنظر اليهم بعين صليبية بحتة . وكانت هذه الناحية التى تمثلها نفسه من ظروف الحياة ومن البيئة المحيطة به أكثر استيحاء لشعره من الناحية الأولى التى هى طبيعة نفسه فكان بذلك كالرجل القوى الذى يرى وطنه فى خطر يصبح جندياً وجندياً باسلا ويتفوق فى كل مواقف الحرب ويصبح القائد الأعظم ، ولو أن وطنه لم يكن فى خطر لرأيته صديق النعمة السعيد بها غاية السعادة " ..

" إن شوقياً لم يكن يشيد بذكر المسلمين وخلافتهم لغاية سياسية صرفة ، بل إنه ليؤمن بهذه المعانى ايماناً يتجلى فى الكثير من قصائده على صورة تتركنا فى حيرة كيف يبلغ الايمان من نفس هذا الحب للحياة كل هذا المبلغ فلا نجد لحيرتنا جلاء الا من الحديث : (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) ويحسبك أن تقرأ الهمزية النبوية ونهج البردة وقصيدته فى ذكر المولد التى مطلعها :

سلوا قلبى غداة سلا وتابا لعل على الجمال له عتاباً

لترى فى غير إبهام أنه انما أملت هذه القصائد قوة غلبت طبع الشاعر هى قوة الايمان .. " .

إن مبعث حيرة الدكتور هيكل هو الاعتقاد السائد لدى معظم نقاد الأدب بأن الشاعر يجب أن يترنم بعواطفه فحسب . والعواطف عند شوقي كما يقول الدكتور هيكل كانت بطبعه منصرفة إلى الحياة الهادئة والرفاهية والسعادة فما كان لشوقي مثلا أن ينادي ، وهو الشاعر ، بالآمال الكامنة في نفوس أمته. شأن الكتاب السياسيين . بل كان عليه أن يخضع لطبيعته هو المنبعثة من أعماق نفسه وللمقتضيات التي لا يرتقي شعر الشاعر إلى درجة الشعر الخالص إذا خالف قواعدها وخرج على حدودها ، وكان عليه — وقد طبعت نفسه على حب الحياة — أن يتجنب المخاطر السياسية . ولكن في الحياة ظروفاً يهتز فيها قلم الشاعر بحماسة استجابة للمثل الأعلى الذي إذا ما نزل وحيه في الفكر المشتعل لشاعر ذي رسالة استولى عليه وسخّر كل كيانه للتعبير عنه ، يهتز قلم الشاعر في مثل هذه الظروف بترديد صدى البرق الذي ينفجر في سماء فكره المتلبد بالغيوم وذلك ايماناً منه برسالته الخطيرة .. وقد كانت الرفاهية والسعادة التي نعم بها شوقي من أقوى البواعث على تدفق أشعاره بسعادة وطنه بتلك القوة من الايمان ، فالذين يضحون بحياتهم في سبيل الذود عن أوطانهم في الحروب الطاحنة هم كتائب من الشبان المتعلقين بالحب ، وقد وطئوا بأقدامهم عتبة الحياة وأحبوها وعشقوا أوطانهم والحياة السعيدة في ربوعها ولذلك نراهم لا يترددون عند ما يدعوّن إلى بذل النفس والنفيس ايثاراً للموت على حياة تقترن بالذل والأسر .. أليس يرمي الكفاح في الحياة إلى البقاء فيها ، وأليس البقاء في الحياة سعادة للانسان الذي يتعلق بالحياة حتى على حافة قبره ، كما قال الشاعر التركي توفيق فكرت[1] ؟ . . . فالشعراء المكافحون إذن هم الذين يحبون الحياة أكثر مما يحبها أي انسان عادي ، يلتهب قلبهم بجذوة أفكارهم ويفيض بعشق آمالهم المتعلقة بالحياة والأوطان . إن الأشعار التي أرسلها شوقي قبل سفره إلى أوروبا إذا لم تحمل طابع شعره الذي قاله بعد رجوعه منها فذلك راجع إلى أن لسان شوقي لم يكن قد نضج يومذاك ولم يكن فكره قد تهذب بعد بتهذيب الرقي الروحي الذي ارتقى اليه

(١) (سور حياتي بشر تاسر مزارنده) — رباب شكسته —

الشاعر عند ما بلغ حد النضج العقلى أثناء دراسته فى أوروبا . وفى الفقرات الآتية التى نقلها المرحوم شكيب آرسلان فى تأليفه المسمى (شوقى وصداقة أربعين سنة)[1] عن أديب مصر الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعى ما يؤيد الرأى الذى أوردته بصدد المثل الأعلى لشوقى . قال الرافعى : « شاعر مرهف معان بأسباب كثيرة ليكون أداة سياسية فى الشعب المصرى تعمل لاحياء التاريخ فى النفس المصرية وتبصيرها بعظمتها وإقحامها فى معارك زمنها وتهيئتها للمدافعة . إن السياسة التى ارتاض بها شوقى ولابسها من أول عهده واتجه شعره فى مذاهبها من الوطنية المصرية إلى النزعة الفرعونية إلى الجامعة الاسلامية كانت سبب نبوغه ومادة مجده الشعرى فقد أبلته بحب نفسه وجعلته كالجواد العتيق الكريم ينافس حتى ظله .. » .

أقول إن الشاعر عندما قام بهذه الرسالة لإحياء التاريخ فى نفوس المصريين لم تفته فرصة الا انتهزها كتلك الرسالة التى أعلنها أمام العالم وضمنها آية من آيات أشعاره أنشدها فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى مدينة جنيف سنة ١٨٩٤ حيث قال :

وإذا مصر شاة خير لراعى الســ   ـــوء تؤذى فى نسلها وتساء
قد أذل الرجال فهى عبيد   وبسير إذا أراد الدماء
ولقوم نواله ورضاه   ولأقوام القلى والجفاء
ففريق ممتعون بمصر   وفريق فى أرضهم غرباء
إن ملكت النفوس فابغ رضاها   فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأســ   ـــر فكيف الخلائق العقلاء

وما أشبه شوقى بأبى الشعراء المجددين فى الأدب التركى الشاعر (شناسى)[2] الذى أرسل أشعاره ككل شاب ألهمته نفسه إلى أن سافر إلى أوروبا لاستكمال دراسته فيها بارادة السلطان عبد المجيد الذى أعلن

(١) ص : ٩٣
(٢) ولد عام ١٢٤٢ هـ فى استانبول .

الدستور فى تركيا سنة ١٢٥٥ هـ ، وتعرف هناك على كبار الشعراء من أمثال (لامارتين Lamartine) وألف بعد رجوعه إلى بلاده أشعاراً تنطوى على أفكار وتعبيرات لم يسبق لها مثيل فى الشعر التركى الذى قاده (شناسى) أول مرة إلى ميدان الكفاح السياسى .

والواقع أن هناك شواهد لتأييد التشابه بين الشاعرين ، منها مثلا : أسلوبهما فى احتذاء الأساليب الشعرية الغربية والتعبيرات التى يستعيرانها من الاصطلاحات المستعملة فى الدساتير الحقوقية وفى العلوم السياسية والاجتماعية بالغرب ، وإذا قارنا بينهما من حيث نشأتهما الأدبية وآثارهما الشعرية رأينا أثر النهضة الفكرية الغربية فى شعرهما ذلك الأثر الذى بدأ فى الشعر التركى بظهور (شناسى) ثم دامت تطوراته إلى يومنا هذا فى عهود المدارس الأدبية المختلفة ، ولا شك أن الأثر نفسه كان من الخطورة بمكان فى تطور الأدب العربى الأخير ...

قال شوقى فى الهمزية النبوية وأبدع أى إبداع فى التعبير عن مثل الانسانية العليا التى بعث بها كلها سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام :

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة   بالحق من ملل الهدى غراء
بنيتْ على التوحيد وهو حقيقة   نادى بها سقراط والقدماء
لما دعوت الناس لبىّ عاقل   وأصمّ منك الجاهلين نداء
فرسمتَ بعدك للعباد حكومةً   لا سوقةٌ فيها ولا أمراء
والدين يسرٌ والخلافة بيعة   والأمر شورى والحقوق قضاء
الاشتراكيون أنت إمامهم   لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئداً وداووا طفرةً   وأخف من بعض الدواء الداء
الحرب فى حق لديك شريعة   ومن السموم الناقعات دواء
والبر عندك ذمة وفريضة   لا منّة ممنونة وجباء
جاءت فوحدت الزكاةُ سبيله   حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى   فالكل فى حق الحياة سواء
فلو أن انساناً تخير ملة   ما اختار الاّ دينكَ الفقراء

وقال وهو يخاطب الشباب :

عصركم حــــر ومستقبلكم ... في يمين الله خير الأمناء
لا تقولوا حظنا الدهـر فما ... هو الا من خيـال الشعراء
واقرؤا تاريخكم واحتفظوا ... بفصيح جاءكم من فصحاء
واحكموا الدنيا بسلطان فما ... خلقت نضرتها للضعفاء
واطلبوا المجد على الأرض فان ... هي ضاقت فاطلبوه في السماء ..

وقال في رثاء ثروت باشا :

تصرعك الخطوة الكبرى ومرحلة ... يدنو على مثلها أو يبعد الأمد
الحق والقسوة ارتدا الى حكم ... من الفياصل ما في دينه أود

وأما (شناسي) فهو أبو الشعراء الذين ترنموا على قيثارتهم بألحان الوجد الباكي في أسلوب تحدّر إلهامه من ينبوع أفكارهم عبرات انحدرت على خدود أفراد الشعب حتى ان الذين ولدوا بالآستانة بعد سنة ١٢٥٥هـ استمعوا في مهدهم إلى هذا النوع من الشعر الوطني على لسان أمهاتهم ونشئوا على أنغامه التي لقنتهم بذل كل ما أوتوا من قوة الشباب لتشييد الوطن الذي كان يرفرف العلم العثماني على أرضه المترامية الأطراف ودفعتهم إلى أن يقوموا قومة رجل واحد ضد كل من يحول دون تقدمه في ركب الحضارة والرقي وممارسة حقوقه المتعلقة بعصره . هذا الدور الذي هيأ في الوقت نفسه أسباب التجدد في الأدب التركي على نمط التحديد الذي بدأ بعهد (التنظيمات) أي الدستور افتتحه مصطفى رشيد باشا الكبير الصدر الأعظم الذي أذاع المرسوم المعروف بخط (كلخانه) بالآستانة وأعلن فيه الدستور العثماني الجديد الذي استلهم واضعه في تدوين نصوصه .. إلى جانب أحكامه المستنبطة من الشريعة الاسلامية — المبادئ الحقوقية التي تقررت في الغرب بعد الثورة الفرنسية وأصبحت في أوروبا شعاراً سياسياً لنظام الأمم المتمدنة الاجتماعي ..

إن عهد (شناسي) الأدبي ومدرسته يعتبران تمهيداً للدخول في وادي الشعر الفكري لدى شعراء الأتراك الذين نشئوا منذ قرن أو أكثر وكوّنوا

فى عهود متتالية مدارس مختلفة فى الشعر وساهموا بآثارهم الشعرية والنثرية فى بناء صرح المجتمع الجديد المزمع انشاؤه فى مرسوم السلطان عبد المجيد . وقد شاء القدر أن وجد فى طليعة أولئك الشعراء الكاتب الوطنى شناسى الذى جاهد فى الصحافة بآثاره الشعرية والنثرية للذود عن المبادئ التى وضعها مصطفى رشيد باشا وأعلن فيها الحرية والمساواة للمواطنين أمام القانون . هذا الشاعر الذى قال فى الشعر الذى خاطب به مصطفى رشيد باشا :

أيا أهالى فضلك رئيس جمهورى

(أى رئيس جمهورية الشعب ذى الفضل)

كان أول من استعمل تعبير (رئيس الجمهورية) فى الأدب التركى . وهو أول من كتب قصائد شعرية فى موضوعات سياسية فى تركيا حيث قال وهو يوجه الخطاب إلى رئيس الوزراء نفسه :

ايتدك آزاد بزى اولمش ايكن ظلمه أسير
جهلمز صان كه ايدى كندمزه برزنجير
برعتقنامه هر انسانه سنك قانونك
بيلديرر حديبى سلطانه سنك قانونك

(أنت حررتنا من كبوتنا فى أسر الظلم
فى حين كان جهلنا يكبلنا كالقيد
فدستورك ما هو الا وثيقة تحرر الانسان من عبوديته
والقانون الذى وضعته أنت يوقف السلطان عند حده)

لقد صار إلهام كل بيت شعر من هذه الأبيات نواة لقصائد مستقله فى أيدى تلاميذ (شناسى) الذين ترنموا بمبادئ أستاذهم . فالأشعار التى ألفها الشاعر الوطنى نامق كمال[1] تدلنا على ما أوقده (شناسى) من نار الحمية فى قلوب هؤلاء الشعراء الذين كتبوا أشعاراً تكاد تفوق فى روعتها عيون

(١) ولد سنة ١٢٥٦هـ فى مدينة (تكفور داغى) .

قصائد السلف في الغزل والفخر والحماسة .. إن نامقاً أضفى على الشعر التركي حماسة قومية بالهاماته الوطنية ونقش عشق الوطن بيراعه في قلب الشباب ونظر إلى القومية من زاوية اسلامية واعتبر وطن الدولة العثمانية وحدة لا تتجزأ أمام محراب التوحيد حينما أخذ يكافح ويناضل لأجل تحرير هذا الوطن في قصائده التي صهرها من الحديد ، حيث قال :

سپهرك عكسنى ، اقبالنى هپ پايمال ايتدم
حميت مسلكنده ترك أولاد وعيال ايتدم
حيانمدن معززكن وطندن انفصال ايتدم
ثبات وعزمه حائل بر دنى دنيامى قالمشدر ؟ ...

(أنا الذي ركلت طالع الدهر وقضيت على حظوظه
وفي سبيل الجود بالنفس والنفيس للوطن هجرت أهلي وعيالي
إذ غادرت وطني وهو أعز من حياتي ..
فما هي العقبة التي تحول دون عزمي وثباتي ، هل هي الدنيا الدنيئة ؟ ..)

وقال :

چكمه‌دم عمرمده زنجير أسارت بارينى
قيد دنيادن مبرايم بيلير دنيا بنى
ايشته ميدان حميت قاچما أي جلاد ظلم
يا سنى محو ايله سن مولا جهانده يا بنى !

(لم أحمل طوق الأسر في حياتي
إنى بريء عن قيود الدنيا وهي تعرفني
هاك ميدان التضحية لا تهرب يا جلاد الظلم
لابد من أن يقضي الله اما عليك واما علىّ أنا ! .)

وقال :

باصديغك خاك سپهدن طوتما آلحاق نفسكى
ثابت اول عزمكده دهر بر ثباتك رغمنه

خاكه يوز سورمكله قالمسه ير اوستنده حيات
اختيار ايت آلتنى خاككك حياتك رغمنه
شر ايدى كوردم ده آيريلدم ذهاب كائنات
منفرد قالدم بويولده كائناتك رغمنه

(لا تكن نفسُك عندك أحقرَ من التراب الذى تطؤه
وكن ثابت العزيمة على رغم الدهر القلّب
إذا لم تكن لك حياة على الأرض الا بتعفير وجهك بالأرض
فاختر أن تكون تحت الأرض على رغم الحياة
رأيت مذهب النـــــاس شراً فهجـــــرتهم
وبقيت وحيداً فى هذا الطريق على رغم الكائنات ..)

لقد ساهم نامق كمال مع شناسى فى تحرير جريدة يومية ولم يلبث أن استقل بادارتها بعد وفاة الثانى كما التحق بجمعية العثمانيين الجدد ، ولما كشفت الحكومة أن هدف هذه الجمعية هو القيام بخلع السلطان عبد العزيز وتولية الأمير (مراد) على العرش بددت شمل أعضاء الجمعية ، وقد هرب الشاعر إلى أوروبا حيث نشر جريدته المسماة (الحرية) ، وفيما هو كذلك قامت الحكومة باعلان العفو العام فرجع الشاعر إلى استانبول حيث عادت السلطات سيرتها الأولى لتضييق الخناق عليه ونفته غير مرة إلى أماكن بعيدة عن العاصمة بتعيينه فى وظائف مختلفة ، ثم أطلقت سراحه وعينته فى مديرية جزيرة (خيوس) حيث توفى إلى رحمة الله وهو يناهز التاسعة والأربعين ، وقد دفن الشاعر حسب وصيته بجوار ضريح الامير سليمان فى (بولاير) بمضيق (چناق قلعه) وكتبت قطعته الآتية على شاهد قبره :

سن اولدك جوركه أى دلشكن محزون بن محزون
فلك كولسون ، سوينسين ايشته سن محزون ، بن محزون
أولورمه م كورمه دن ملتده أميـــد ابتديكم فيضى
يا زيلـــين منك قبرمده : وطن محزون ، بن محزون ...

(يا محطم القلب ! لقد أصبحنا شريكين فى الحزن
فليضحك القدر مسروراً فها أنت حزين وأنا حزين
ولئن مت قبل أن أرى فى الشعب الفيض الذى آمله
فليكتب على شاهد قبرى : وطنى حزين وأنا حزين ...)

وقد قال بعض النقاد [1] انهم لم يجدوا الأحاسيس المشتركة للضمير الانسانى فى أشعار نامق كمال التى تعبّر عن الآلام الجائشة فى قلب الأمة ، كما أنهم لم يلقوا استعارات العشق الرقيقة فى قصائده . ولكن الواقع هو أن أغوار قلب الشاعر لا تسبر بمجرد النظر اليه من خلال عدسة غير محددة وذلك لاختبار احاطته بالانسانية جميعاً ، بل يستدل على قدرة الشاعر الأدبية بالصور التى يبدعها حينما يقدم لوحة تعكس ما فى القلب الانسانى من ألوان الانفعالات والتأثر ، وآثار شاعرنا فى الجهاد التى دخلت الخلود مع التاريخ وهى ملتفة حول ظرفها وزمنها قد تضاعفت قيمتها مع شخصية مؤلفها الفريدة فى إخلاصها . وبقيت فى الأدب العثمانى منقطعة النظير إلى يومنا هذا ...

(١) الأستاذ اسماعيل حبيب مؤلف : (تورك تجدد ادبياتى تاريخى) أى : تاريخ أدب التجديد التركى .